أزقة وحارات دمشقية

حكاية تجمع بين الماضي والحاضر تدعونا للتعرف عليها . . .

الباحثة نبيلة القوصي

إخوتي قراء زاوية (معالم وأعيان):

من الواضح أن مدينة دمشق نشأت كمدينة صغيرة وسط غوطة واسعة، يرويها نهر بردى وفرعاه تورا وبانياس، وتتوزع في أطرافها القرى والمزارع... قد شغلت الجانب الغربي من دمشق القديمة بسبب ارتفاع الغربي عن الجانب الشرقي، وكانت أزقة ومساكن المدينة تتوزع بغير نظام.

ففي العهدين الروماني والبيزنطي، شهدت دمشق ازدهاراً اقتصادياً ضاعف من عدد سكانها، الأمر الذي أدى إلى توسيع المدينة، فأُحيطت بسور مستطيل بني بالأحجار الضخمة وزُوّد بسبعة أبواب، وفي المدينة شارع رئيسي عريض يمتد من الغرب إلى الشرق، ينحصر بين باب الجابية وباب شرقي عُرف باسم الشارع المستقيم، مزين بالتماثيل الرومانية على طول الطريق...تقطع هذا الشارع أقواس النصر، وكانت المخازن التجارية موزعة على طول الشارع، حيث كانت الناحية الشرقية السوق العام للمدينة.

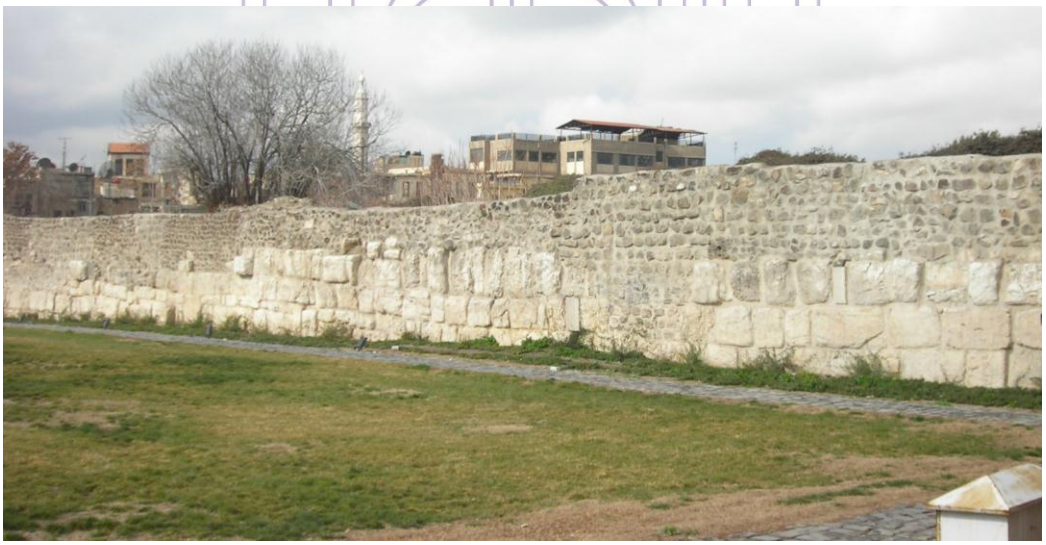

ومنذ السنوات الأولى للعهد الإسلامي، أخذت دمشق تتحول تدريجياً إلى مدينة عربية مسلمة تميزت عن مدن العالم، بأحاديث المصطفى التي رواها ليحث الأتقياء الصالحين سكناها لبركة أرضها ووجود خيرة وصفوة خلقها كان سبباً لتظهر كنجمة في السماء، يُشار إليها بالبنان....

فكأنها بأبوابها وأسوارها مدينة محصنة اتصلت بالعالم الخارجي بشبكة طرق مرصوفة تخرج من أبوابها إلى مختلف الجهات تدعو الناس ألا هنا مدينة (العلم والعلماء) ألا هنا (مدينة المدارس) ألا هذه هي المدينة التي أضاءت قصورها بنور مولد سيد الكون.... فهيا للعلم والعمل الصالح النافع للجميع... وبالحكمة والموعظة الحسنة...

وذكر ابن عساكر عدداً من دور الصحابة التي كانت تتوزع في محلتي (باب توما) و(باب شرقي)، مما يدل على جوار رائع نشأ بين المسلمين والمسيحيين منذ القرون الماضية، والذي نستيقن منه أن دمشق في العهد الأموي كانت في أبدع حلة وأجملها بعد أن نعمت بالمركز الاستراتيجي والروحي المعتدل.

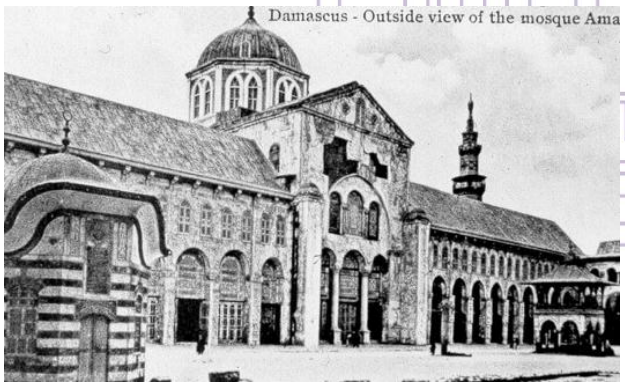

وأخذ الناس بالتجمع حول الأموي، فبنوا المباني والقصور والمحال العامة، وشيّد معاوية داره التي عُرفت بدار الإمارة، وبالخضراء، نسبة للقبة التي تعلوه... وله جناحان: قسم لأهل الخليفة والآخر لرجال الدولة، ويُعد هذا أول بيت عربي بُني في دمشق.

وتعتبر مدينة دمشق من المدن الغنية بالأوابد الأثرية، حيث تزخر بالقلاع والأبراج والحصون والزوايا والمساجد والمدارس، والحارات القديمة التي كانت تمثل فيما مضى حياً متكاملاً فيه مسجد وحمام وفرن وبيوت سكنية...

هذه الحارات لاتزال قبلة للسائح المسلم المعتبر المتعظ، ترتاح وتطمئن روحه ونفسه أثناء المشي في طرقها التي بدأت تتغير بسبب الأزقة الفرعية المتعرجة والتي تسمى (درب)، وتحفها بيوت من ثلاث طبقات....

وظل الأموي قرابة خمسة قرون الجامع الوحيد في دمشق، إلى جانب مصليات صغيرة، بدأت تظهر أحياء بعيدة زُوّدت بالعناصر المعاشية ومؤسسات محلية: (مسجد صغير وفرن وسوق وسويقة...) وحدث مع الزمن تكتّلٌ جماعي على أساس الأحياء، وتحصنت الحارات وراء الأبواب، ولعل هذا النموذج هو السبب في انتشار المساجد الصغيرة في كل مكان، أحصاها ابن عساكر/242/ مسجداً داخل الأسوار و/178مسجداً خارجها.

وحظيت المدينة في عهد نور الدين بعناية عمرانية فائقة، فرمّم السور وحصّنه بالأبراج ورمّم الأبواب وقام ببناء أبواب جديدة، كباب السلام والفرج... وباشورة لكل باب، وهي سويقة صغيرة تتقدم الباب كي يتموّن أهل المنطقة وقت الحصار...

وبنى المؤسسات العامة، أهمها: البيمارستان النوري والمدرسة النورية ودار للعدل وحمام البزورية.... وأخذت تدب الحياة شيئاً فشيئاً في الأرباض والضواحي بدئاً بمنتصف القرن السادس، حيث تم إعمار جبل قاسيون وإقامة مدينة مستقلة عُرفت (بالصالحية).

والحي الثاني الذي أُسس في هذا العهد خارج السور هو (حي العقيبة) في شمالي السور، والذي ضم خمس مساجد وحمامين، و(حي العمارة.)....

ومفهوم الحارة في دمشق تطور نتيجة عوامل عدة، فأصبح لكل حي تنظيم خاص به لتوفير الحماية والأمن، فتحصنت الحارات خلف الأبواب، وظلت كذلك إلى العهد العثماني....

وبدأت تظهر وتلمع بيوت الدمشقيين كالمنارة الساطعة تدعو الناس لترسيخ مفاهيم الدين المحمدي على هذه الأرض المباركة بالحكمة والموعظة الحسنة، وما النسمات الروحانية الإيمانية المنبعثة من بين الدروب الصغيرة والحارات أو الأحياء الواسعة إلا لدليل على روعة ساكنيها، فالأرض بما حملت من فوقها وبمن احتضنت تحت ترابها من العلماء الربانيين والعارفين بالله والصالحين الذين تميزوا بالأخلاق المحمدية قولاً وعملاً....

وبالرغم من انشغال الدولة الأيوبية بالحروب الصليبية، فقد استمرت الحركة العمرانية بالنمو والاستمرار، خاصة حي الصالحية، الذي امتد من سفح قاسيون باتجاه الجنوب إلى أن اتصل بالأسوار، ونشأ في غرب السور محلّة عُرفت (بحكر السماق)، حيث يمتد اليوم شارع النصر، وإن توزع المدارس الأيوبية في الأرباض بكثرة، كالركنية والصاحة والجهار كسية وغيرها، لدليل على مدى قوة النشاط والازدهار العمراني.

ولأول مرة، بعد خمسة قرون على بناء الجامع الأموي، أخذت تظهر في دمشق جوامع تقام فيها صلاة الجمعة، وكلها خارج الأسوار، بعد أن كانت مساجد صغيرة ذات مصلى صغير لا تقام إلا صلاة الجماعة فيها.... كجامع الحنابلة في الصالحية، والذي يحاكي مخطط الأموي تقريباً، وجامع الجراح في الشاغور، والماردينية في الجسر الأبيض.....

ومدينتا القديمة لم تُحرم من المنشآت العظيمة، وفي طليعتها القلعة التي بُنيت بعد هدم القلعة السلجوقية، وهي لاتزال قائمة إلى جانب المدارس: العادليتين والناصرية والعزيزية....

ولا ننسى الترب وانتشارها هنا وهناك، لتذكر من أدبر وتولى ونسي أن التراب ينتظره ليضمه ولن يبقى له إلا عمله.... فيكون بذلك حافزاً يحذرنا ويذكرنا بحديث المصطفى: (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها) ...فكن من الذين يباهي بهم سيد البشر صلوات الله عليه وسلامه، فأنت في مدينة امتدحها نبيك قبل أن تولد فيها، وعِش بطيب وأحسن الأخلاق، عسى الله أن يجعلك ممن يباهي نبيّنا به.

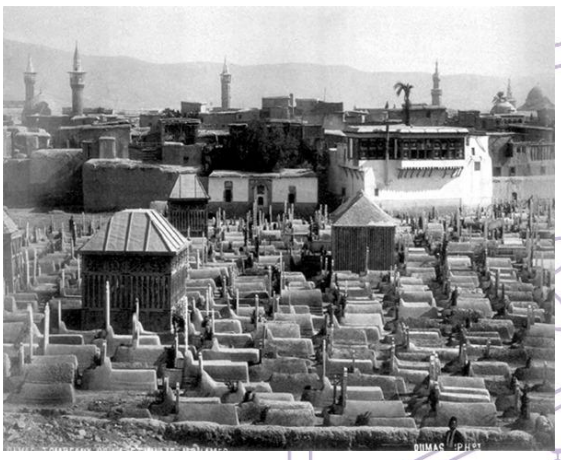

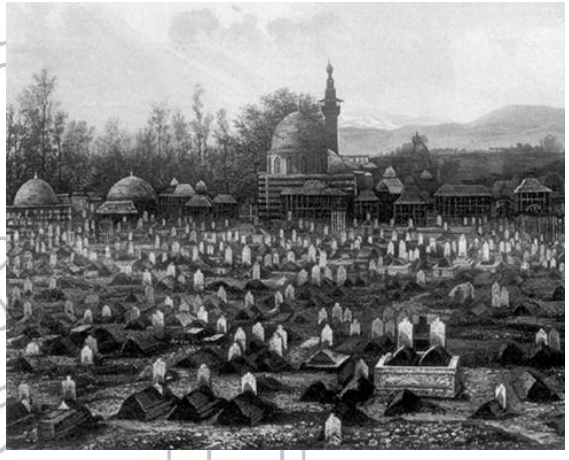

وأخذت تتابع دمشق نموها واتساعها في العصور اللاحقة، فشيّد الظاهر بيبرس قصره الأبلق في الميدان الأخضر مكان التكية السليمانية، وتم إعمار المنطقة بشكل سريع وجميل، وظهر (حي وسوق ساروجة) فيما بعد، ومن جهة باب الجابية ظهر (حي الميدان ومحلة القبيبات)، وينتهي عند بوابة الله ثم يتجه إلى الكسوة فحوران.

أما إلى الجنوب الغربي، كان طريق فلسطين ومصر يمر من داريا فنشأ على هذا الطريق (محلة باب سريجة).

وكانت المدينة تلفت أنظار الرحالة بنظافتها وجمال بحيراتها، فيقول ابن جبير: (كان لكل زقاق رصيفان في جنبيه، يمر عليهما المترجلون، ويمر الركبان بين ذلك).

ولم تلق دمشق خلال أربعة قرون من الحكم العثماني ازدهاراً عمرانياً يُقارن بالعهد الأيوبي، الذي جاء امتداداً للعهد المملوكي، فتمّ تجديد (محلة الشيخ محي الدين)، والتكية السليمانية والمدرسة المجاورة لها، وفي 995هجري (السنانية)، وتكية للدراويش(المولوية) غربي جامع تنكز993هجري.

أما في القرن التاسع عشر ميلادي ظهر نوع من التطور على مخطط المدينة فشُقّت فيها طرق جديدة وأسواق وأحياء (كحي القنوات)، الذي ضم مساكن الطبقة الأرستقراطية التي تجمّعت حول السرايا.

وظهر (حي المهاجرين) في غربي قاسيون، (وحي الأكراد) في شرقيه، وطرأ على حي الميدان نمو جديد... فأُقيمت على طوله المهن والصناعات التي لها صلة بقوافل الحجاج.

وانتهى الدور الحربي للقلعة والأسوار، فرُدمت الخنادق وأُحيطت الأسوار بالأسواق المتنوعة البضائع والأغراض.

وفي أواخر القرن التاسع عشر، أخذت أساليب العمارة الأوربية تنتشر في مدينة دمشق، ومن أهمها جامعة دمشق1873ميلادي، والمستشفى الوطني1899/1317 الذي حلّ محلّ البيمارستان النوري، واستمر النمو والتوسع مع اندماج متكامل بين سكانها الذين يفخرون بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يجتبي إليها صفوة خلقه) ....

فعش أيها الدمشقي، وهذا الحديث معشوقك وهدفك، ليكون حبل الله الممدود لك للاتصال بحبيبه سيد العالمين.

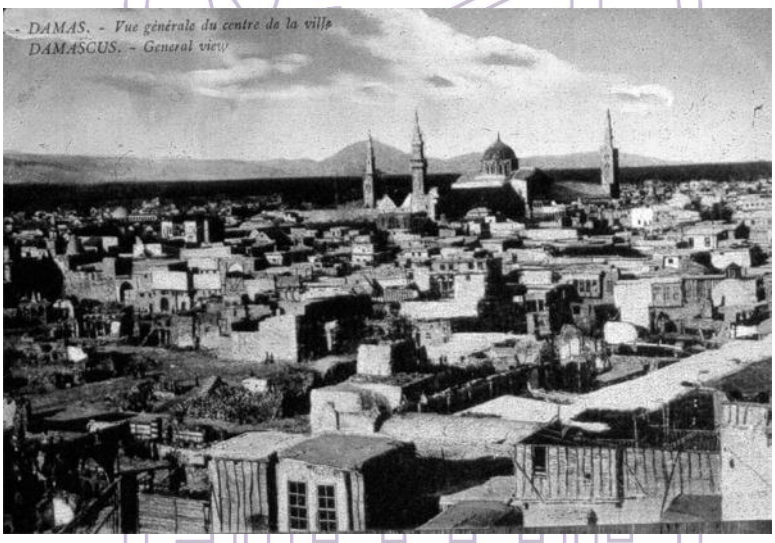

إخوتي:

نترككم مع صور لمدينة الأسوار، ومن المؤكد أننا لم نأتِ على كامل البحث، فلا زال هناك الكثير والكثير.....

نرجو أن نكون قد وُفّقنا بمختصر القول إن دمشق أروع المدن، فاثبت وآمن أيها الدمشقي واعمل عملاً يباهي به سيد الخلائق...

نسأل الله لنا ولكم حسن الاختيار والتوفيق، ولنا لقاء آخر بإذن الله مع بيوت دمشق والشام الحبيبة، فانتظرونا....

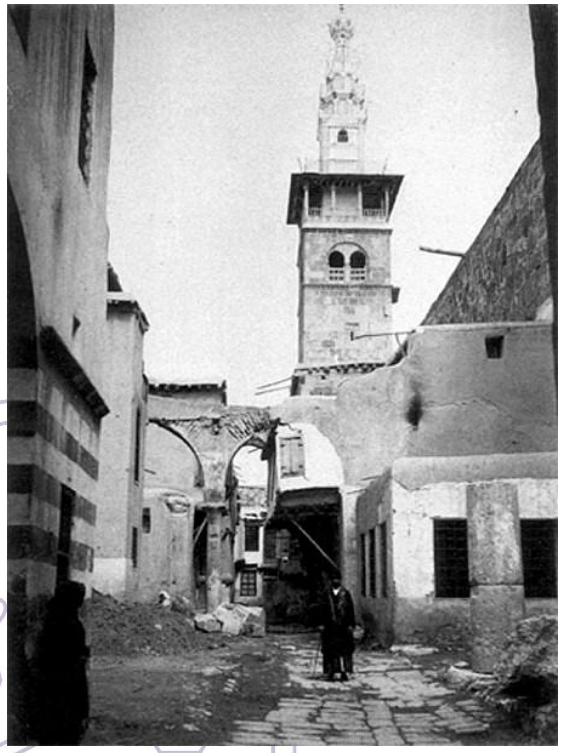

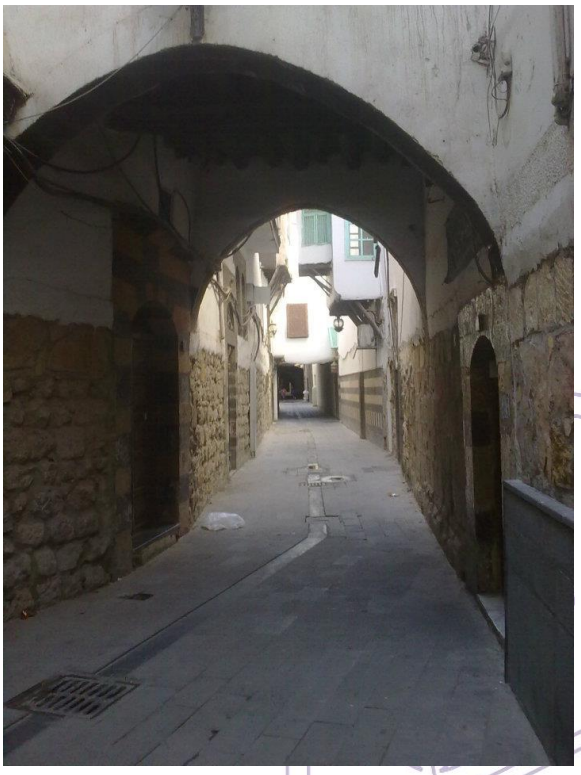

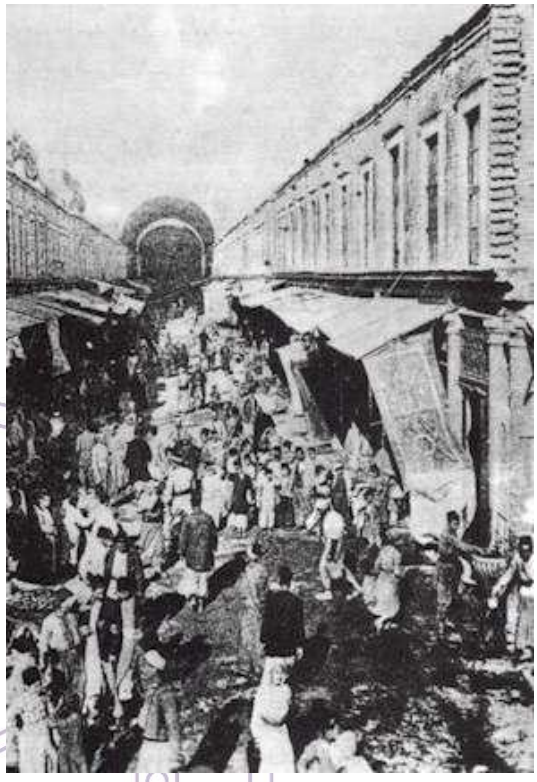

Rabbee Alhaj Othman

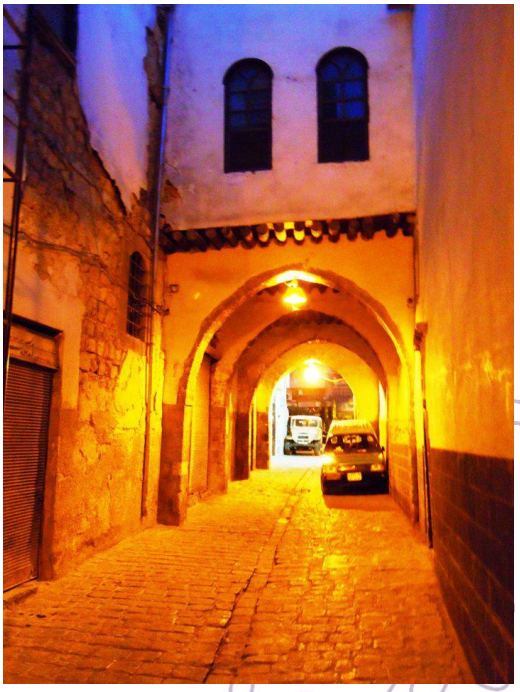

salam alnablsi

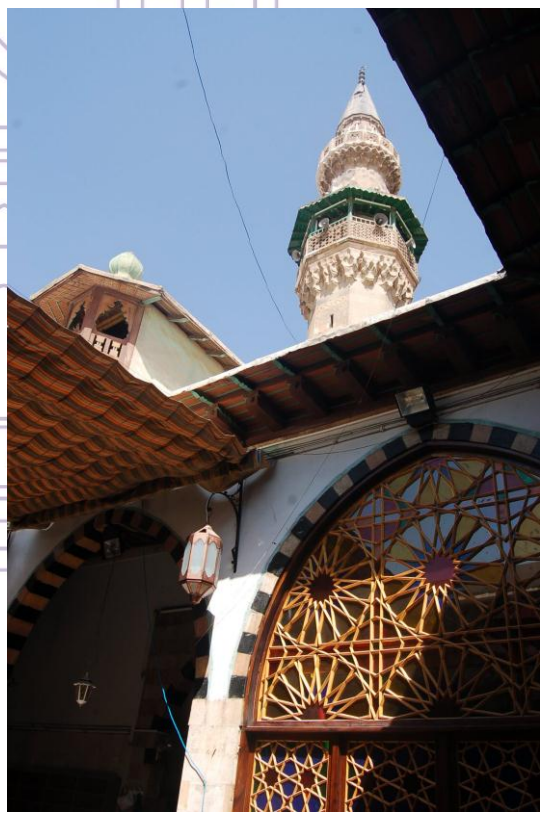

جامع الجوزة

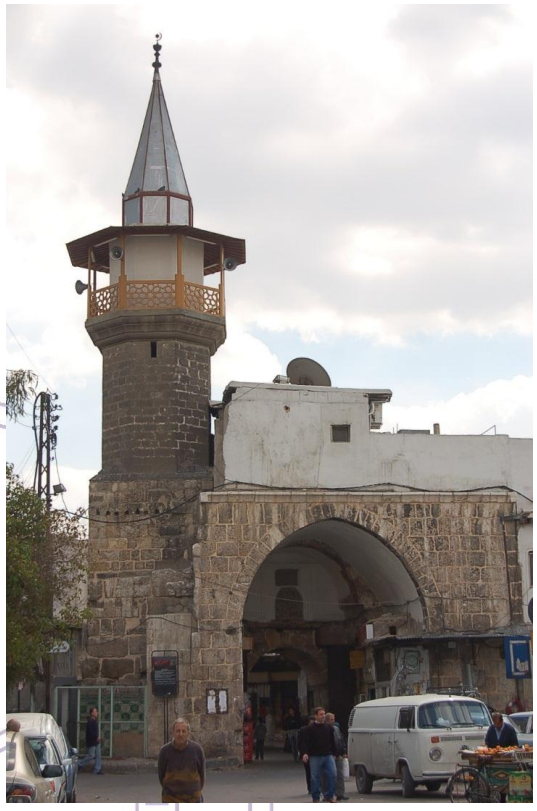

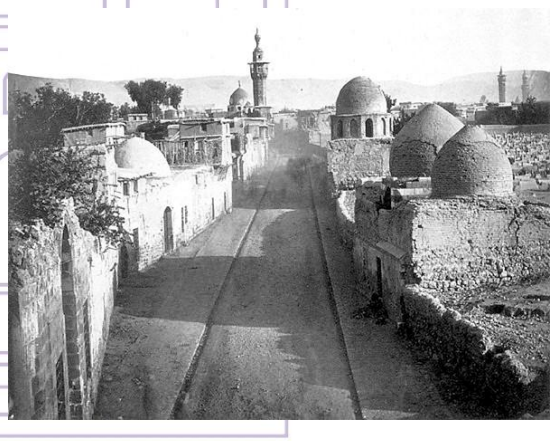

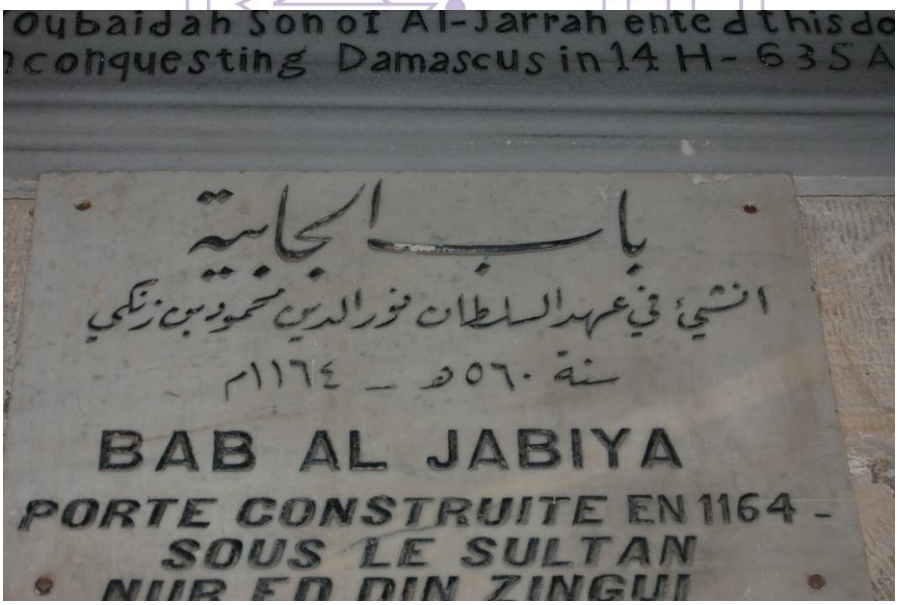

المصادر:

تاريخ دمشق/لابن عساكر

رحلة ابن جبير/لابن جبير

الحوليات الأثرية العربي السورية

العمارة الإسلامية/لعبد القادر الريحاوي